مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 10 /العـدد: 2 (2022)، ص: 990- 1000

الإنسان المرتخي: "قراءة في وضع إنسان الحداثة السائلة" من منظور جيل ليبوفتسكي وزيجمونت باومان.

The Slouchy Man: "A Reading in the Situation of the Liquid Modern Man" from the perspective of Gilles Lipovetsky and Zygmunt Bauman.

د. جدراوي عفاف[1]

[1]جامعة الحاج لخضر باتنة 01(الجزائر)، afaf.djedraoui@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2022/03/22 تاريخ القبول: 2022/03/28 تاريخ النشر: 2022/05/10

الملخص:

يروم هذا المقال إلى تسليط الضوء على موضوع "**الإنسان**" بغية دراسة حالته الراهنة في ظل تقلبات الحداثة السائلة أو الحداثة الفائقة من طرف كل من عالم الاجتماع الفرنسي جيل ليبوفتسكي والبولندي زيجمونت باومان، فالوضع الذي آل إليه المجتمع المعاصر بفعل صيرورة النزعة الفردية، وهيمنة النزعة النيوليبرالية وطغيان مبدأ السوق وسيطرة النموذج الاستهلاكي على الحياة الإنسانية، إنما يؤكد على بروز نوع من الإنسانية يسميه لبوفتسكي "**بالإنسان المرتخي**" هذا الأخير الذي يتجاوز كل القيم و الواجبات التي كانت بمثابة حدود ترسم أفعاله وتحدد مسارات اتجاهاته في الحياة، ليكون بذلك إنسان اليوم هو إنسان سائل بلغة باومان مرن رقرارق متنصل من الوجبات والقيم الثابتة ومتمركز في المقابل على ذاته ينشد لذته الفورية المستقلة عن أية توابع تثقل كاهله بعبء حجم المسؤولية. ومنه نتساءل: كيف كانت قراءة جيل ليبوفتسكي وزيجمونت باومان للإنسان المعاصر في ظل تقلبات الحداثة السائلة أو الحداثة الفائقة؟

الكلمات المفتاحية: الإنسان المعاصر؛ ما بعد الحداثة؛ الاستهلاك؛ جيل ليبوفتسكي؛ زيجمونت باومان.

Abstract:

This article aims to shed light on the subject of "man" in order to study his current state in light of the fluctuations of liquid modernity or ultra-modernity on the part of the French sociologist Gilles Libovtsky and the Polish Zygmunt Bauman, the situation that contemporary society has become due to the process of individualism, and the dominance of individualism. Neoliberalism, the tyranny of the market principle, and the domination of the consumer model over human life, confirm the emergence of a type of humanity that Bovtsky calls “the lazy man.” A fluid human being in the language of Baumann is flexible, free from meals and fixed values and centered in return on himself, seeking his immediate pleasure independent of any consequences that burden him with the burden of the size of responsibility. Hence, we ask: How was the reading of the generation of Lipovtsky and Zygmunt Bauman of contemporary man in light of the fluctuations of liquid modernity or ultra-modernity?

Keywords: contemporary man; Postmodernism; Consumption; Gilles Lipovetsky; Zygmunt Bauman.

المؤلف المرسل: د. جدراوي عفاف.

.مقدمة:

لقد بني الخطاب الحداثي الغربي صرحه الفلسفي على جملة من المقولات كالعقلانية والتقدم والديمقراطية...وكلها تُشيرُ في ظاهرها إلى تأسيس عالم مثالي حتى اعتقد الناس الخلاص فيها، ولكن سرعان ما انقشع زيف النعيم المغشوش،

وظهر وهنه وضعفه، ودخلت بذلك مجتمعات الحداثة السائلة أو ما بعد الحداثة حقبة جديدة مختلفة تمامًا لما راهن عليه فلاسفة عصر التنوير والمشروع الحداثي عموما.

فهذه المرحلة الجديدة تشهد تغير مفتوح على أربع وعشرين ساعة ومدار الأسبوع وهو تغير وصل إلى أقصاه وقد مس كل قطاعات الحياة الإنسانية، وهذا ما جعل المجتمع المعاصر يعيش حداثة محمومة مبالغ فيها بلغة جيل ليبوفتسكي الأمر الذي نتج عنه جملة من التحولات على مستوى الفرد والمجتمع تتمثل في طغيان مبدأ السوق وهيمنة النزعة الفردية، وسيادة منطق المتلازمة الاستهلاكية على الحياة البشرية؛ التي حولت الإنسان إلى ذات استهلاكية عبر استثمار جميع وسائل التسويق الحديثة.

وهذا ما يقضي على كل انشغال خارج الذات، ويدحض سطوة المثل العليا، ويدعو في المقابل إلى التمركز حول الذات والبحث عن مصلحتها المتمثلة في تحقيق متعتها الفورية، ومنه فقد حل مبدأ المتعة الشخصية محل المتعة الجماعية، وهنا تتجسد اللامبالاة المرتخية على حد تعبير جيل ليبوفتسكي التي حررت الإنسان من الواجبات القديمة والقيم الصلبة ووعدت الذات بالنعيم الأرضي منه نتساءل: ما حال الإنسان في تظل تقلبات الحداثة الفائقة؟ وما حال الإنسان في ظل تفكك الحدود وغياب الواجبات؟

ولهذا انطلقنا من الفرضية القائلة إذا أفرط الإنسان في الانغماس في منظومة الاستهلاكية، فإن ذلك سيؤثر حتما على السلم التراتبي للقيم ويظهر حتما إنسان ما بعد التخلق أو الواجب.

ومنه كان الهدف من البحث هو بيان حال الإنسان في ظل تقلبات الحداثة الفائقة وما لها من حمولة مؤثرة على ذهنية الفرد المعاصر ، والتي أنتجت فردا نرجسيا باحثا عن مصالحه ومتخذا من اللذة ديدنه من السعادة الإنسانية مقصده ومن الاستهلاك ملاذه. كل ذلك جعله يخترق كل الواجبات ويتجاوز كل الثوابت..

وقد اعتمدت على المنهج التحليلي؛ أين حللت فيه أفكار كل من زيجمونت باومان وجيل ليبوفتسكي لبيان قراءتهما حول حال الإنسان المعاصر في ظل تحديات الحداثة السائلة وتقلبات الحداثة الفائقة، ناهيك عن توظفي للمنهج المقارن ويظهر في المقارنة بين المفكرين لبيان نقاط الاشتراك حول الفكرة الأساسية المتمثلة في بيان حال الإنسان المعاصر.

1.الاستهلاك والسيولة الدائمة:

إن المجتمعات المعاصرة طغت عليها ثقافة الاستهلاك والمتع الديمقراطية الشخصية والمتحررة من سطوة المثل العليا الجماعية، وبهذا يكون المجتمع الاستهلاكي في حركية دائمة، وسيولة لا نظير لها يقول: "إن الاستهلاك بنية مفتوحة وديناميكية، فهو يحرر الفرد

من علاقات التبعية الاجتماعية، ويسرع حركات الاستيعاب والرفض، وينتج أفرادا عائميين وحركيين، ويعولم أنماط الحياة مع السماح بالحد الأقصى من التفرد للناس." (ليبوفتسكي، 2018، صفحة 116)

فالتحرر من المنظومة القواعد العقلانية للجماعة البشرية يدفع بالإنسان المعاصر إلى البحث عن كينونته وسط رغد العيش، والذي يستلزم البحث عن كل الممكنات التي تجلب له الرفاهية الذاتية وتحقق له الترف الخالد بلغة جيل ليبوفتسكي. وهذا ما يتوافق مع منطق السوق، وما تقدمه الليبرالية الجديدة من خدمات سلعية استهلاكية تخلف في نفوس أفرادها رغبات وحاجيات جديدة تزيدهم رغبة في البحث عن متع جديدة وتفتح شهيتهم أكثر لتعبئة عربة التسوق وملء حقائبهم عن آخر بلغة زيجمونت باومان.

ففي مجتمع المستهلكين كما يوضح جيل ليبوفتسكي لم يعد الإنسان يفكر في امتلاك الأشياء ولا حتى الأفراد، بل هو متحرر من كل ذلك لأنه يؤمن بمبدأ الفائدة والاستخدام والتي تنتهي بوجود إشعار آخر يقول:"وسط نفوذ قيمة الاستخدام، لم نعد مرتبطين بالأشياء، فنحن نغير بسهولة المنزل والسيارة والأثاث، إن العصر الذي كرس الأشياء اجتماعيا هو ذاته الذي نتخلى فيه عن الأشياء بسهولة فنحن لم نعد نحب الأشياء لذاتها ولا ما توفره من درجة اجتماعية، بل لما تمثله من فائدة واستخدام." (ليبوفتسكي، 2017، صفحة 178)

ويعني؛ بالجملة أن الثقافة "المتعية" تفرض علينا منطق "الصيرورة" والذي يرفض كل ما هو ثابت يتعارض مع منطق التجديد المستمر وهذا ما يتوافق مع معنى "التحديث القهري الوسواسي المتواصل الذي لا يتوقف ولا يكتمل أبدا، والتعطش المتأصل النهائي إلى التدمير الخلاق" (باومان، 2016، صفحة 74) وبذلك يتحول العالم إلى ساحة استعراض شاملة لصور الاقتصاد اللانهائية،أين يصبح فيه الهدف لا شيء، والنمو فيه كل شيء، فيغطي بذلك الاستعراض العالم بأسره ويستحم بمجده، وهذا هو كنه "مجتمع الاستعراض" الذي يصفه صاحب كتاب مجتمع الاستعراض(La société du spactacle)بأن الاستعراض ما هو إلا: "تزيينا لا غنى عنه للأشياء، التي تنتج الآن، وبوصفه خلاصة عامة لعقلانية النظام، وبوصفه قطاعًا اقتصاديًا متقدمًا يشكل مباشرة حشدا متناميا من الأشياء–الصور-فإنه هو الإنتاج الرئيسي للمجتمع الراهن." (ديبور، 2000، صفحة 11) أمام متاهة الاستعراض هذه، فإن جيل لبوفتسكي ينتقد المنظومة الاستهلاكية لأنها أجهضت الإنسان وقضت على خصوصيته وساهمت في غرس ثقافة زائفة ووعي مغشوش لذلك فهو يساند جي ديبور في إدانته "للوعي الزائف" والاغتراب المنتشر والناجم عن الثقافة الزائفة." (ليبوفتسكي، 2017، صفحة 18)

وحسب "جي يبور" فإنه داخل مجتمع الاستعراض يصبح "المحتوى السلعي" هو القيمة المكافئة لأي عمل حياتي، مهما بدا هذا العمل تافها، وهذا نتيجة لخضوع الأفراد بوعيهم لمنطق الاستعراض؛ بمعنى اغترابهم ذاتيا واجتماعيا مما يجعلهم لا يعيرون اهتمامًا لمفهوم "القيمة" بالنسبة لأي محتوى في حياتهم، سواء أكان شعورا أو فعلا أو دافعا، الأمر الذي يؤدي إلى تماهي الفرد بشكل تام مع نسق كامل من الصور المستعرضة، فيغدو الفرد بهوية المتفرج والمتنصل من السمات الإنسانية يقول: "وهكذا لم تعد الحياة تمتد لتبلغ السماء، بل تضم داخلها نفيها المطلق، جنتها الزائفة. الاستعراض هو التحقيق التقني لنفي القدرات البشرية إلى ما وراء؛ هو الانقسام المكتمل داخل الإنسان." (ديبور، 2000، الصفحات 12-13)

ويُشير زيجمونت باومان هنا إلى فكرة "جان بودريار" عن " الواقعية المفرطة" والتي تؤكد أن الحضارة الغربية تعيش اليوم لحظات ما بعد موتها؛ لأن هذا الموت إنّما ينتج عن المحاولات المحمومة لاكتشاف العالم وسبر أغواره والقضاء على كل أسرار الكون وغموضه وإزالة سحره ليصبح العالم مجرد صور ثابتة متحجرة وواقعية أكثر من الواقع في ذاته أي "نحن نعيش في فرط الواقعية."(Bauman, 1992) وهذا يعني اختفاء الواقع الحقيقي ليسود الواقع المصطنع أو النسخة الشبيهة، لأنه في ثقافة ما بعد الحداثة الراهنة أصبحت الصور أكثر واقعية وإغراء وجاذبية مقارنة بحياة الناس الحقيقية، وهذا ما أدى إلى اغتراب الناس عن واقعهم فضلا عن ذاتهم.

وبسبب سيطرة صور الإعلام أصبح الناس يتصارعون من أجل اقتناء السلع والتي لا يأتي الطلب إليها نابع من رغبة حقيقية ولكن يتم طلبها بسبب ما تعرضه الإعلانات والدعايات التجارية من صور مغوية، ومن ثم صار الاستهلاك المفرط للصور أكثر من استهلاك الأشياء في حد ذاتها،وهذا ما يجعل الواقع أكثر واقعية من الواقع وفرط الواقع هو التجسيد الوحيد للسيولة يقول باومان:"في الواقع المفرط كل شيء يتجاوز نفسه (...) أكوام من الصور، أكوام من المعلومات." (Bauman, 1992, p. 151)

وفي ذات المنحى يتحدث "إدغار موران" عن هيمنة النزعة الاستهلاكية وسيطرة المشاهد الخيالية المعروضة على الحياة الإنسانية، والتي تشكل في نظره "إلهاء وتسلية للهروب وعودة جديدة للبعد الأسطوري –الخيالي في إطار الطموح إلى حياة شاعرية- أي إلى "الحياة الحقيقية" طموح يزاد عمقًا أكثر فأكثر، وهو طموح ترعاه حضارتنا الفردية." (موران، 2010، صفحة 33) وهذا ما يؤدي إلى مرض الحضارة الغربية ناهيك عن دخول الإنسان في حالة اغتراب تام–مع نفسه والجماعة التي ينتمي إليها- بسبب سطوة "الفرادنية" الموحشة، وطغيان الاستهلاك على الحياة وكل ذلك أدى إلى تخلف في مستوياته المتعددة يقول: "وهكذا فنمو حضارتنا يقودنا إلى تخلف ثقافي جديد، وإلى تخلق عاطفي –ولم يعد الناس قادرين على إيجاد جواب عن حاجتهم للتواصل الإنساني، والمحبة والاجتماع- وإلى تخلف أخلاقي في ظل تقهقر المسؤولية والتضامن." (موران، 2010، صفحة 25)

ففي مجتمع الاستهلاك المضخم كما يرى ليبوفتسكي يعيش الأفراد حالة متناقضة مترديةمن الهشاشة، أين يتسلل إلى نفوسهم شتى أنواع القلق وخيبات الأمل، وزيادة عن غياب الأمن السيسيولوجي والشخصي، وكل ذلك يتحكم في البنية العميقة لديهم ويشعرهم بالتعاسة، رغم دمقرطة القيم المتعية، وارتفاع رغد العيش وسيرورة الاستهلاك يقول: "فكلما تطور الاستهلاك؛ أصبحت الأشياء وسائل غير مفرحة، مجرد أدوات، ليس إلا،هذا ما نعيشه في مفرطة العالم المادي." (ليبوفتسكي، 2017، صفحة 178) ولتقليل من شعور التعاسة الملازم لعملية دمقرطة القيم المتعية، فإن الأفراد يتجهون إلى عبادة الأنا عبر "عبادة الجسد" وإتباع مبدأ الحداثة السائلة "أنا نفسي أولا" .

3.الاستهلاك وعبادة الجسد:

إن هوس الأنا بذاتها في عالم ما بعد الحداثة يجعلها تسلك عبادة جديدة ألا وهي "عبادة الجسد" فهي العبادة المقدسة اليوم، من أجل إظهار الذات بمظهر جميل وأكثر شبابا، وبالتالي فلا غرابة أن تنتشر فنادق ومؤسسات توفر كل ما هو جميل وتضمن حلول لمختلف المشكلات الجسدية، وهذا ما أكده جيل ليبوفتسكي في قوله :"بالفعل، إن منتجات العناية أصبحت تحتل الصف الأول لمبيعات مستحضرات من مياه البحر، مراكز العناية واللياقة البدنية، البدائل الصحية في قمة ازدهارها عمليات التجميل تسجيل طفرة غير مسبوقة." (ليبوفتسكي، 2018، صفحة 62)

وفي الذات السياق يؤكد "زيجمونت باومان" أن أرفف المحال التجارية ناهيك عن المواقع الإلكترونية الخاصة بالصحة والعناية بالجسم، غنية بمستحضرات التجميل ومختلف الأدوية للعناية بالبشر وتنحيف الجسد، فهي توفر الحلول السريعة للمشاكل العويصة على المستهلك بطرق ومهارات عالية الجودة، تمكن الإنسان من التحكم في جسده بطريقة غير مسبوقة، ولكنها مضمونة وناجحة ومجربة، وهكذا تتخذ عملية "تشكيل الجسد "وتطويره" بل إعادة تدويره منحنا جديدا وما يؤكده خبراء الصحة اليوم في قول أحدهم: "فلدينا الآن الوسائل التي تساعدنا على ممارسة درجة غير مسبوقة من التحكم في أجسادنا." (باومان، 2016، صفحة 125)

فهوس العناية بالجسد قذف بالمرأة والأنوثة إلى عالم الدمى أين جعلها مهوسة بالأنوثة النمطية، وذلك بنحت جسدها لتصل إلى نموذج عارضات الأزياء باعتبارها تجسيدا لنموذج الحياة الجميلة ذات الجسم الممشوق، وهذا ما يميز القرن العشرون، والذي يشهد "إعلاء غير مسبوق لقيم الجمال من خلال تأليه النجمات باعتبارها ظاهرة غير مسبوقة بات الجمال النسائي يسمح بكسب شهرة تتساوى وتزيد أحيانا عن شهرة بعض رجال الدولة." (ليبوفتسكي، 2012، صفحة 178)

ويُشير عبد الوهاب المسيري إلى الأدب المتمركز على حول الأنثى، وهي الحركة النسوية الرائجة في فكر ما بعد الحداثة والتي سميت: فمينستFeminist، ويؤكد أنها حركة تحتفي بجسد المرأة (تعطيه الأولوية المعرفية)، وتتجاوز الثبات وتتمركز على الصيرورة والتغيير فيما يسمى "مانفستو حركة التمركز حول الأنثى "الذي كتبته هلين سيكسيو(ولدت بوهران في الجزائر، من أم أشكنازية، وأب من السفرديم عام 1937، وهي أستاذة وكاتبة وشاعرة، وناقدة أدبية وخطيبة، إحدى رائدات الأدب النسوي لها مؤلفات كثيرة منها(le pénon de dieu(paris : grasset 1967) (Helene cixous) حيث جاء فيه: "اكتبي نفسك يجب أن يسمع جسدك، وحينئذ ستسمع مصادر اللاوعي ..جسدي يعرف أغنيات لم تسمع. يجب على المرأة أن تنزع القيود عنها وأن تحرر بضاعتها وأعضائها، وتستعيد أرضيتها الجسدية الضخمة التي تم تقييدها." (المسيري، 2018، الصفحات 195-196)

إن الحياة المتمركزة على اللذات الحسية تجعل "المرأة" حريصة على امتلاك جسدا يتسم بالمرونة والقدرة على الاستيعاب، وقابلا في نفس الوقت للتعديل حسب الموضة الرائجة في العصر، وهذا يعني أنها لابد أن يكون جسمها "مرن" يتمتع باللياقة البدنية والتي تشير "إلى القدرة على التحرك بسرعة أينما كان الحدث والاستعداد للتجارب كما هي." (باومان، 2017، صفحة 84)

وفي تقدير التحليل فإن التمتع "بجسد ذو لياقة عالية" يقضي على فكرة الثبات والصلابة واليقين، ويعلن في المقابل لميلاد فكرة اللايقين المزمن، الذي هو في صراع متواصل دون الوصول إلى حالة من الكمال النهائي والصفاء الذاتي في الأفق يقول باومان: "إن اللياقة تظل منفتحة دوما على "الزيادة"؛ أنها لا تشير إلى مستوى محدد من القدرة البدنية، إنّما إلى إمكانية توسعها (اللامحدود)." (باومان، 2016، صفحة 132)

وهكذا فقد وصلت حمى "الاعتناء بالجسد" سواء بالنسبة للرجل أو المرأة في ثقافة ما بعد الحداثة حد التأليه، بهدف الحفاظ عليه وإظهار محاسنه على الدوام، وبذلك بالاستعانة بطقوس ممارسة العناية بالجسم لطرد الأرواح الشريرة بلغة باومان التي تفسد شبابه وتحط من رشاقة جسمه، ولهذا فقد شغلت مسألة جماليات النحافة كما يرى ليبوفتسكي الصدارة في كوكب الجمال الجديد، وهذا ما يتجلى في غزو "إرشادات النحافة الجرائد النسائية أكثر فأكثر كما أسهبت الزوايا الصحفية في الحديث عن قيمة الغذاء المتوازن، وعن وصفات انقاص الوزن، وتمرينات اللياقة والقوام وتكاثرت الدعاية لمنتجات إنقاص الوزن، كما حدث مع كتب الحمية الغذائية." (ليبوفتسكي، 2012، صفحة 133)

وقد استغلت السوق الاستهلاكية فرصة هوس "الاعتناء بالجسد" ففتحت لذلك العديد من الشركات التي تروج لإعلانات صحية ومثالية حول كيفية الحفاظ على رشاقة الأجسام مقابل تكاليف مالية غالية الثمن ويستدل باومان على ذلك من رصد إحصائية سجلت في الولايات المتحدة الأمريكية يقول: "في عام واحد 1987، أنفق الأمركيون الذين يعتنون بأجسامهم كل الاعتناء 74مليار دولار على أغذية النظام الصحي، وخمسة مليارات على النوادي الصحية، و2.7 مليار على الفيتامينات، و738، مليونا على أجهزة التمارين الرياضية." (باومان، 2016، صفحة 136)

وهكذا أصبح الجسد الرشيق والمشدود هو المعيار الأفضل للجمال والنموذج الأمثل الذي يتصدر قائمة الثقافة الجسدية في المجتمعات الغربية لذلك تتصدر طرق المحافظة عليه الصدارة بغية "الحفاظ على القوام، اللياقة البدنية المقوية والخفيفة، إلى جانب الركض الفردي، وتمرينات العضلات وتدعيمها. إن الجمال لم يعد ليدرك دون الرشاقة، ودون القيود الغذائية، والتمرينات الجسدية." (ليبوفتسكي، 2012، الصفحات 134-135)

ولعل الهاجس الأكبر الذي يشكل مصدر تهديد للعالم "الأنثوي" هو الخوف المزمن من "تقدم العمر" وبروز "التجاعيد" و"الشيخوخة" و"السمنة"، و"المشكلة الدهون" كلها علامات تحطيم "القوام النسائي" وتعرضهن للكآبة والحزن، لذلك كانت أشد رغبة ملحة لديهن تتمثل في إصلاح أو إخفاء كل علامات الإنفلاش والرخاوة التي تصيب البدن، من أجل ضمان دوام جمالهن. وهكذا فإن أعظم ما يهيمن على الأفق النسائي الجديد كما يراه ليبوفتسكي فيما يتعلق بالجمال معياران هما: "مقاومة السمنة ومقاومة الشيخوخة، وتتجلى هذه النزعة في ارتفاع استهلاك مستحضرات التجميل، وصارت منتجات العناية تحتل المرتبة الأولى بين مبيعات مستحضرات التجميل." (ليبوفتسكي، 2012، صفحة 135)

انطلاقًا من هذا كله فمن المتوقع أن تتحول "قضية الدهون" و"مشكلة السمنة" إلى "صيحة حرب رئيسة" (باومان، 2016، صفحة 134) كما يقول باومان فهي تشير إلى قوات العدو أو جماعة إرهابية مستعدة لشن حرب ضروس ضد التحصين الشديد الذي يقوم به "جسد المستهلك" فمع على الجسد إلا أن يجاهد نفسه وأن يتبع الطرق المناسبة لصد هذا العدو الخارجي يقول: "إن دهون الجسد ترمز إلى الاحتلال الأجنبي أو "الطابور الخامس"، أو الخلايا الإرهابية وهي التجسّد الأحداث للطابور الخامس." (باومان، 2016، صفحة 132)

إن ظهور "**عبادة الجسد**" إنما هو نتيجة حتمية لتغير المخيال الاجتماعي حول الجسد الذي أفرزته منظومة المجتمعات الاستهلاكية، ومن ثم فهو يشكل الآن كما يرى جيل هويتنا العميقة التي "ما من سبب للخجل منها، والذي يمكن بالتالي أن يستعرض عاريًا في الشواطئ أو الحفلات على حقيقته الطبيعية. لقد حقق الجسد كرامته كشخص وينبغي أن تحترمه، بمعنى السهر باستمرار على حسن سيره والحيلولة دون تهالكه ومحاربة علامات تدهوره من خلال إعادة تدوير دائمة عبر الجراحة والرياضة والحمية إلخ." (ليبوفتسكي، 2018، صفحة 65)

ويعني؛ هذا بالجملة خلع رداء القداسة ونزع فكرة الجوهر عن الجسد، بحيث يصبح مجرد مادة استعمالية متاحة لكل التجارب التي تستهدف تدويره وإعادة إنتاجه وتشكيله وفق مقتضيات العصر وهذا ما يؤكده زيجمونت باومان في قوله: "تحول الجسد نفسه إلى موضوع ومادة تستهدفها الثقافة، فصار مالك الجسد الآن مديره، والمشرف عليه ومشغله في آن واحد وصارت المهنة الطبية تمده بمنتوجات تقنية أكثر تعقيدا حتى يؤدي هذه الوظائف." (جبر، 2018، صفحة 224)

وفي إطار منظومة العلمانية الشاملة كما يرى المسيري يزداد الإيمان بالمرجعية النهائية الكامنة في المادة، ليبرز الجسد كصورة مركزية في الحضارة الغربية؛ وهي صورة تنكر إمكانية التجاوز وتسحب الإنسان إلى عمق الحالة الجنينية السطحية الواحدية البعد، وفي هذه الحالة يتخلى الإنسان عن "هويته الإنسانية، وكيانه المركب المستقل، ووعيه الفردي والاجتماعي، ومقدرته على الاختيار الحر، كما أن عليه الانسحاب من الحضارة والقيم (...)، إلى عالم الطبيعة الذي لا حدود له ولا يتجاوز فيه، والذي يحوي داخله كل ما يكفي لتفسيره." (المسيري، 2018، صفحة 191)

وهكذا يغدو الجسد كجزء لا يتجزأ من الوجود ويعبر عن انتماء كوني يلتحم فيه الوعي في عنصر واحد مشترك، وهذا ما أكدته فلسفة "موريس مبرلوبونتي" 1908-1961(Maurice merleauponty)التي كانت ثورة عنيفة وانقلابا على التقليد الفلسفي الكلاسيكي القائم على ثنائية الفصل بين الجسم والنفس، وبيان تمايزها ابتداء من أفلاطون ووصلا الى الفلسفة الحديثة(من ديكارت إلى كانط)، فهذا التقليد الفلسفي في نظره مجحف في حق انطولوجيا الجسد، لأنه يمضي إلى "إهمال الجسم وإهمال الوجود العالمي، إنّه يخرج الإنسان من العالم ومن ثمة يفقده وجوده، وهو بهذا ينتهي إلى اغتراب الإنسان عن العالم وإلى اغتراب العالم عن وجودنا الشخصي، وهنا تأتي أصالة ميرلو-بنتي وثورته على هذا التقليد الفلسفي لتثبت وحدتنا الوجودية والجسم ووحدتنا الوجودية والعالم." (ميرلو-بنتي، د،ط، صفحة 15)

وفي تقدير التحليل فإنه يطرح جميع المسلمات السابقة ويستدل بذلك بكوجيطو "ديكارت "أنا" المفكرة. إلى أنا "متجسدة" تدرك موضوعاتها من خلال قصدية الجسد وبالتالي تمكن من نقل الفينمينولوجيا من المجال المتعالي المفارق للعالم، إلى مجال الملتحم مع العالم من خلال الجسد، وهو الأمر الذي يؤدي إلى انسجام الجسد والعالم فيصران متحدان ومتلاحمان بحيث لا نستطيع الفصل بين الأجسام المحيطة وبين جسمي وحسب ميرلو-بنتي فإن الإدراك الحسي يقوم على اعتبار وحدة وجودية مزدوجة: "فمن الناحية هنالك وحدة وجودية تشمل النفس والجسم في واقع إنساني ينتج لنا أن نعتبر الجسم الإنساني ذاته ذاتًا أي أنا متجسدًا، وفي الوقت عينه هنالك وحدة وجودية تشمل الأنا المتجسدة والعالم، ومن شأنها أن تتيح لنا أن نرى العالم ،عالم الأجسام، امتدادا لجسمنا مصنوعا من نسيجه وملحقاته." (ميرلو-بنتي، د،ط، صفحة 14)

وهكذا أصبح الجسد في علاقة وثيقة مع مفهوم الذات كموضوع للبحث مما يعني أفول سرح "الروح" باعتبار أن الحياة النفسية في نظره شيء لا مرئي يوجد في مكان عن خلف الأجسام الحية، ومنه فما يحسه الإنسان داخله هو اللامرئي، ومن هنا جاء رفضه للمفاهيم النفسية وإمكانية قوله دون مبالغة أن "مفاهيمنا الإنسانية المتعلقة بالحياة النفسية وبعلم النفس هي وهمية بقدر ما هو عليه تصنيفاتنا للحياة القديمة (...)،إنها كما لو أنها طبقة بيولوجية عميقة، شيء "لا مرئي" يوجد في مكان ما خلف الأجسام الحية." (ميرلوبنتي، 1984، صفحة 30)

فتركيز ميرلوبونتي على أنطولوجيا الجسد جعله يتحول من اللامرئي إلى المرئي وينقل الجسد من حالة التحجب إلى حالة التكشف بلغة مارتن هيدجر، وينتشله من حالة الغياب إلى حالة الحضور، ويخرجه من الهامش إلى المركز، ومن مجال المسكوت عنه إلى مجال الحقيقة، أين يصبح الجسد بوابة الوصول إلى "الإنسان"، وعليه يصير الجسد في صميمه إدراك وحضور أمام العالم، ومن ثم يغدو العتبة التي تمر بها الذات إلى ظواهر أشياء العالم التي يمكن إدراكها، فهو الجسر الثابت بين الذات المتجسدة والعالم المدرك، بحيث لا يمكن التميز بين المعنى النابع منا والمعنى النابع من الأشياء الخارجة عنا يقول: "نحن نصل كلنا إلى العالم، العالم نفسه، وهو كله بدوره إلى كل واحد منا بدون تقسيم أو تفتيت، وذلك لأنه "هو ما" تعتقد إدراكه وهو الموضوع الشائع لكل أفكارنا ووحدته أن لم تكن العددية فهي ليست بدورها وحدته النوعية الخاصة: إنها تلك الوحدة المثالية أو حدة تجعل من مثل هندسة أن يكون هو نفسه في طوكيو كما في باريس، في القرن الخامس قبل الميلاد أو في الوقت الحاضر." (ميرلوبنتي، 1984، صفحة 41)

إذن؛ فنحن حسبه ندرك بأجسادنا التي تضمن لنا الوصول إلى العالم وموجوداته من خلال ما يوفره الجسد من الإحساس بالحركة، فيسمح هذا الإحساس بادراك حركة الجسد والعالم يقول: "فجسمي، المرئي والمتحرك، هو في عداد الأشياء، إنه واحد منها، وهو يتشابك في نسيج العالم، وتماسكه هو تماسك شيء ما. ولكن بما أنه يرى ويتحرك، فهو يمسك بالأشياء في دائرة حوله، وهي ملحقة به أو امتداد له، إنها مفروزة في لحمة وتكون جزءا من تعريفه الكامل، والعالم مصنوع من نفس نسيج الجسم." (ميرلو-بنتي، د،ط، صفحة 19)

وفي ذات السياق يتحدث عبد الوهاب المسيري عن مركزية الجسد في حضارة الغربية وكيف استثمرته وظفته لأغراض مادية نفعية، وخير دليل على ذلك توظيف "جسد المرأة" لتحقيق الربح من قبل الشريكات حتى وإن كانت منتوجاتها لا تصلح (في أي مجال مثل السيارات أو مواد التجميل ...)، وهذا من خلال الإعلانات التجارية المروجة التي يلعب فيها جسد الأنثوي الدور الأساسي يقول: "في حالة إعلانات السيارات هو اختيار سيارة جديدة جميلة فاخرة، سلعة قد تكون غير نافعة أو تتسم بصفات ليست نافعة، ولكنها ولاشك لذيذة، ومن هنا توجد بجوار السيارة دائما فتاة عارية تستخدم ساقيها اللذيذتين لتوجيه أنظارنا للمزايا اللذيذة غير النافعة للسيارة." (المسيري، 2013، صفحة 31)

وهكذا يجد الإنسان العادي نفسه مبسوطا أمام ثقافة التعري ومعبئ بالدوافع الاقتصادية الجسمانية المروجة لصورة شخصنة الجسد، أين يصبح هذا الأخير نقطة الاهتمام في الأزمنة السائلة، وهو الأمر الذي يدفعه إلى عشق جسده وهذا ما صرح به جيل ليبوفتسكي في قوله: "في هذا الزمن، يعد جسمك هو أنت؛ وبالتالي ينبغي الاهتمام به وعشقه وإظهاره فهو لم يعد يشبه الآلة." (ليبوفتسكي، 2018، صفحة 32)

فعملية شخصنة الجسد في الأزمنة الراهنة؛ تعني أن يتجه الإنسان إلى ذاته، وأن يعمل جاهدا على أن يكون منفتحا عليها، فلا يلقي السمع لصوت غير صوتها، وهذا ما أعلنته ما جرجت تاتشر قائلة: "فلا تنظر إلى الخلف أو إلى فوق؛ أنظر داخل نفسك، حيث يمكن دهاؤك وارادتك وقوتك –والأدوات كافة التي يتطلبها تقدم الحياة –" (باومان، 2016، الصفحات 75-76)

4.أزمة السعادة المعاصرة:

يحلل جيل ليبوفتسكي وزيجمونت باومان ظاهرة السعادة في المجتمعات ما بعد الحداثة ويريانها سعادة تحمل في ذات معالم الضدية؛ فبقدر ما توفر للإنسان الأريحية والمتعة بقدر ما تزيد في نفسه من شعور بالمقت والقلق، وهذا ما يقصده جيل ليبوفتسكي "بالسعادة المتناقضة" والتي تتراوح بين الرفاهية ورغد العيش الإنساني والشعور بالقلق وخيبات الأمل والحرمان والاكتئاب، نتيجة عدم إمكانية تحقيق الكمال المنشود خاصة عند أولئك الذين لا تتوفر لديهم الإمكانية اللازمة للوصول لحالة الكمال، ومنه فلا غرابة أن يلوح في الأفق "مرض جماهيري أكثر مما يلوح التدمير الذاتي والإحباط النهائي، وهو مرض يشيع على نحو متزايد، فالاكتئاب والتبرّم والانهيار هي تعبيرات عن عملية الانسحاب واللامبالاة." (ليبوفتسكي، 2018، صفحة 49)

وذات الأمر قد لاحظه "زيجمونت باومان" على الإنسانية فهو يرى أن عالم السوق يوفر للأفراد ملذات بطرق سهلة الاستعمال سريعة الإشباع، ولا تتطلب أي جهد أو تضحية من طرف المستهلك، وهو الأمر الذي يجعلهم يشعرون بالسعادة لأنهم يتلذذون بالأشياء الجميلة اللامعة على أرفف السوبرماركت أو شماعات المحال التجارية، إلا أن الإنسانية في هذه الأيام تعاني من كرب دائم، ويعتريها شعور بالقلق والخوف المزمن من القادم وهذا ما هو إلا أثر جانبي من آثار النزعة الاستهلاكية يقول: "إن الكرب أثر جانبي للحياة في مجتمع استهلاكي، ففي ذلك المجتمع تتعدد الطرق وتتفرق، لكنها تؤدي جميعها إلى المحال التجارية." (باومان، 2016، صفحة 137)

وفي نفس المنحى لاحظ "موارن" كذلك في تشخيصه "للواقع الغربي"، والذي أكد أن المجتمعات الغربية يتنامى فيها الشعور بالقلق والمقت الشديد، والرغبة في الانتحار، ناهيك عن تفشي أنواع الأمراض النفسية والعقلية، وهذا يعد في نظره ثمن باهض تدفعه البشرية جراء النجاح الاقتصادي الهائل، والتقدم التقني والتكنولوجي الذي توغل وساعد في رفاهية مختلف مجالات الحياة الاجتماعية يقول: "منذ سنة 1962 إلى يومنا هذا، تزايد بثلاثة أضعاف عدد الأشخاص الذين أقبلوا على الانتحار والذين أدخلوا إلى المستشفيات الأمراض العقلية، وتزايد ستة أضعاف عدد الذين يستهلكون المهدئات." (موران، 2010، صفحة 19)

وأمام الاستهلاك الفائق والحداثة المفرطة يجد الإنسان نفسه في نهاية الأمر تعيسًا حزينًا يحتاج إلى من يمد يد العون إليه فينقضه من مستنقع الاكتئاب الغارق فيه، لذلك فلا مفر من هذا الوضع المأساوي، إلا من خلال اللجوء إلى مستشار نفسي يقود حياته أو خبراء ينصحونه ويوجهون حياته مقابل أثمان غالية، وهذا هو السبب في انتشار العيادات النفسية في الأزمنة السائلة، فالطبيب فيها بمثابة الكاهن بلغة جيل ليبوفتسكي.

وهنا يُشير الفرنسي لونوار(René lenoir) إلى الوضع المزي الذي تعيشه الإنسانية نتيجة ارتفاع السعار الاستهلاكي، والذي أدى إلى "انهيار سلوك العديد من الأشخاص الذي يعبر عنه الاستهلاك المسعور لأدوية الأمراض العقلية النفسية ومضادات الانهيار العصبي (تزايد العديد بستة أضعاف خلال خمس عشرين سنة)، وتزايدت العلاجات في جناح الأمراض العقلية والنفسية داخل المستشفيات ثمانية ألف شخص)." (موران، 2010، صفحة 19)

وتأسيسًا على هذا كله أكد "موران" أن التطور الغربي والحياة السعيدة التي نعيشها اليوم هي في حد ذاتها أزمة، تعكس مستوى الترف والبذخ الذي وصلت إليه المجتمعات الغربية، ومن ثم تكون هذه السعادة في نظره مادية منفصلة عن القيمة، وبالتالي فالبعد الذي يكون فيه الأزمة هو البعد القيمي، لا الاجتماعي والثقافي أو الاقتصادي. فالحضارة الغربية على قدر السعادة التي تعيشها، إلا أنها على بعد خطر مخيف عن القيم الإنسانية والفراغ الروحي، أين أصبح فيه الفرد لا قيمة له "كذات إنسانية".

وهذا إعلان عن موت كل القيم المحايثة للإنسانية كالتضامن والإخاء والمسؤولية مما يجعل البشرية عرضة للخطر والكارثة يقول في حواره مع طارق رمضان: "في حضارتنا الغربية المتطورة والمعولمة، نشهد تخلفًا ملحوظًا فيما يخص ثقافة التضامن والطائفية وفي المقابل نشهد تضخما للفردانية والأنانية. إن الفردانية ليست أمرا سيئا في حد ذاته لأنها قد تنتج المسؤولية والاستقلالية، لكن الأنانية والانغلاق على الذات المشاكل الحقيقية." (طارق رمضان وادغار موران، د،س، صفحة 101)

وبالفعل تكون "معضلة الأنانية" و"الانكفاء على الذات" هي الخطر الأكبر الذي يهدد مستقبل البشرية لأنها تساهم في ظهور إنسان جديد يطلق عليه جيل ليبوفتسكي اسم **"الإنسان المرتخي"** (ليبوفتسكي، 2018، صفحة 50) وهو مهوس بنفسه فقط، لا يبالي بالقضايا العامة كالنهضة والتغيير والدفاع عن الديمقراطية، فهو بذلك إنسان نرجسي تشكل ذاته محور اهتمامه، بل يوغل بالاهتمام الزائد بالمسائل الشخصية على حساب القضايا ذات المجال العام، ومنه فهجر هذه المسائل العامة هي السبب وراء ما يعانيه الإنسان المرتخي من أمراض نفسية يقول: "لا ينبغي إرجاع القابلية للاكتئاب إلى النوائب النفسية التي يتعرض لها كل واحد منها أو إلى صعوبات الحياة الحالية، وإنّما إلى هجر الشأن العام." (طارق رمضان وادغار موران، د،س، صفحة 50)

فبروز الإنسان النرجسي المتمركز على ذاته زاد من عزلة الأنا ونزوعها نحو نفسها وهذا ما يؤسس لكل ما يدمر أسس الذات المستقلة الواعية مما يفقدها معالمها، ويوسع في المقابل سقف فضائها ليلاقي قدره المتمثل في الاستقلالية والتحرر. وهكذا تجد النرجسية وظيفتها كما يقول: "في التخلي عن المضامين المتصلة بالأنا بفضل الطلب المتضخم للحقيقة حول الذات، كلما كان الانشغال بالأنا كبيرًا، وكان موضوعا للاهتمام والتأويل، كلما تزايد الشك والتساؤل تصبح الأنا مرآة فارغة من كثرة المعلومات." (طارق رمضان وادغار موران، د،س، صفحة 60)

خاتمة:

بناء على ما سبق نصل إلى القول بأن هنالك جملة من العوامل التي ساهمت في تغير حال الإنسان ليصبح على ما عليه في الوقت الراهن، ويمكن إرجاع ذلك إلى صيرورة النزعة الفردية التي تغولت أكثر بسبب هيمنة النموذج الاستهلاكي على الحياة الإنسانية، ناهيك عن سيطرة النزعة الليبرالية الجديدة التي تضاعفت وتيرتها مع تصاعد المد العولمي وحركة السوق، كل هذا أثر على سيكولوجية الفرد المعاصر، مما جعله ذات نرجسية توغل في الاهتمام بذاتها وتحرص على كل ما يصب في أجنداتها الشخصية.

الأمر الذي خلق لنا إنسان سائل بلغة زيجمونت باومان وإنسان مرن مرتخي بلغة جيل ليبوفتسكي متخذ من اللذة مقصده من الاستهلاك غايته، وبالتالي فهو يبحث عن مصالحه الشخصية بمنأى عن المصالح الجماعية.

ولتجنب هذه الفوضى والضياع الذي يعيشه الإنسان المعاصر الناتجة عن غياب المرجعيات والثوابت القيمة نقترح ضرورة العودة للقيم الأخلاقية والتشبع بروح المسؤولية اتجاه الذات أولا و الآخر ثانيا وبهذا فقد نتمكن من إنقاذ الإنسانية من الأزمة القيمية التي تعيشها خاصة في الآونة الأخيرة ، وهذا ما يتوافق مع دعا له كل من باومان وليبوفتسكي اللذين أكدا على ضرورة مراجعة الذات البشرية لنفسها من أجل العودة إلى القيم الإنسانية المشبعة بخطاب المحبة والتعاون من أجل خلق عالم إنساني يساهم في إنقاذ إنسانية الإنسان.

1-المصادر:

1- ليبوفتسكي جيل،2018، عصر الفراغ الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة، تر: حافظ إدوخراز، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت.

2- ليبوفتسكي جيل،2018، الترف الخالد من عصر المقدس إلى زمن الماركات، تر: الشيماء مجدي، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت.

3- ليبوفتسكي جيل،2012، المرأة الثالثة ديمومة الأنثوي وثورته، تر: دنيا مندور، المركز القومي، القاهرة.

4- ليبوفتسكي جيل،2017، مملكة الموضة والمتجدد،تر: دينا مندور، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

5- باومان زيجمونت،2016، الحداثة السائلة، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

6- باومان زيجمونت،2016، الحياة السائلة، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

7- باومان زيجمونت،2017، زيجمونت باومان أبو الحداثة السائلة: ترجمات خاصة، تر: فريق المجلة كتاب جيل جديد.

8- Zygmunt Bauman, 1992 Intimations of Postmodrnity,London, New York : Routledge.

المراجع:

1- ديبور جي،2000 ،مجتمع الاستعراض، تر: أحمد حسان، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة.

2- موران ادغار، 2010، نحو سياسة حضارية، تر: أحمد العلمي، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان.

3- حجاج أبو جبر،2017، نقد العقل العلماني: دراسة مقارنة لفكر زيغمونت باومان وعبد الوهاب المسيري، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، قطر.

4- ادغار موران وطارق رمضان(د،س) تساؤلات كبرى حول القضايا المعاصرة، تر: محمد صلاح شياظمي، إفريقيا الشرق، المغرب.

5- عبد الوهاب المسيري2013، العلمانية والحداثة والعولمة، تحرير، سوزان حرفي.

6- عبد الوهاب المسيري،2018، الحلولية ووحدة الوجود، الشبكة العربية للأبحاث والنشر للأبحاث والنشر، بيروت.

7- موريس ميرلوبونتي،1987، المرئي واللامرئي، تر: سعاد محمد خضر، دار الشروق الثقافية العامة، بغداد.

8- موريس ميرلو-بونتي،(د،س) العين و العقل: تر: حبيب الشاروفي، نشأة المعارف بالإسكندرية، مصر.